ضمائر للبيع

من الممكن أن تشتري بحُرٍّ مالك منزلاً أو سيارة أو ما تعارف الناس على بيعه وشرائه من مستلزمات الحياة البشرية ؛ فهذه الأمور توافق طبيعة الناس ولا نكران لها ؛ولكن الشيء الذي لا يقبله العقل ولا المنطق ولا يقبله دين ولا عرف هو أن يُباع ويُشترى الضمير الآدمي بثمن بخس كأي سلعة في سوق النخاسة ؛ وللأسف هذه الظاهرة موجودة ومنتشرة في بعض المجتمعات.

وقديماً حكى الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله عن أحد الأدباء ممن ذاع صيته واشتهر قلمه بكتاباته أنه التقى مرة بمن عرض عليه أن يكتب له ما يريد في إحدى الصحف بمقابل مادي وسلمه إياه ؛ فلم يَرُقْ لهذا الكاتب قدر هذا المبلغ فجعل يساومه ليزيد فيه فغضب صاحب المال وقال له:

ما هذا هل هي قضية بيع وشراء؟

فقال له بصراحته المعهودة: نعم إننا نبيعك ضمائرنا !

ثم علق الطنطاوي على هذه الصفقة بقوله: ما أرخص الضمائر في سوق النفاق !

وأنا أقول : لئن كان بيعٍ الضمائر في الأزمنة السابقة مستتراً فبيعها اليوم أضحى ظاهرا في وضح النهار دون ما وازع ديني أو حياء من الناس أو خوف من أي أحد طالما أن هناك بدائل جاهزة لمعنى البيع والشراء عند بائعي ضمائرهم وعند مشتريها .

وما أقبح البيع والشراء إذا كان على حساب الدين أو المبادئ والقيم والمثل العليا والأخلاق الكريمة والشرف الرفيع ؛ أو الأمانة أو على حساب الوطنية والوطن !

صحيح لم تصدر المجامع الفقهية قراراً بتحريم هذا النوع من البيع تحريماً بيناً ومحدداً ؛ لأن العلماء قديماً مجمعون على تحريمه بالنقد أو المؤجل سواء تمت الصفقة في جُنح الظلام أو وضوح النهار ؛ في الحارة أو في السفارة وسواء انعقد الإيجاب والقبول في مجلس البيت أ م في حديقة (الهايد بارك)!!

وسواء كان قبول البيع بالصيغة القولية أو المكتوبة فكل ذلك يخالف شرع الله وسنة نبية وما جرى عليه العرف بين الناس من كرامة ورفعة نفس وعادات سليمة.

كل ذلك غش وحرام يمنعه الانتماء للدين الإسلامي والحس الوطني ويرفضه الشرف ويمهيه الإباء ؛ وأنَّى لشريف أبيّ أن يبيع ضميره بثمن بخس دراهم معدودة أو مناصب مشهودة ؛ أو وجاهة اجتماعية مرغوبة .

وللأسف فقد ضعف الدين وانعدمت الوطنية واضمحلت الإنسانية و قل الشرف وانحسر الإباء فرخص الضمير نتيجة لكثرة العرض وكثرة الطلب.

فظهر من يوظف قلمه ليهدم شعائر دينه وظهر من يوظف لسانه ليستبيح به أعراض الناس وظهر من يبيع حكومته ووطنه ؛ وأغرب من هذا وذاك من باع ضميره وهو لا يدري وباع معه نفسه ؛ ففخَّخ وجهَّز ودبَّر وفكّر وقدّر لينسف البنيان ويقتل الإنسان ويهلك الحرث والنسل ألا ساء ما يزرون.

فالله سبحانه وتعالى قد منع بيع أعضاء الآدمي؛ تعظيماً لحرمته وتأكيداً لشرفه فتحريمه لبيع ضميره وقيمه أشد أثماً وأعظم جرماً؛ لأن البيع الأول لا يتفق مع آدميته والثاني لا ينسجم مع ولائه لدينه وحكومته ووطنه .